الحِكم الهندية في كتاب "الحِكمة الخالدة" لمسكويه

د. عمَّار عبدالعزيز العسَّاف*
Email: ammar.assaf1976@gmail.com

ملخص البحث:

يسلّط هذا البحث الضوء على الحكم الهندية في كتاب "الحكمة الخالدة" (جاويدان خرد)، وهي حكم لم يتطرق إلى دراستها الكُتَّاب لانشغالهم بالحِكم الفارسية والحِكم اليونانية اللتين نالتا قسطاً وافراً من اهتمام مسكويه. بداية يتطرّق البحث إلى أصول هذه الحكم وكيفية انتقالها إلى اللغة العربية بروافدها المتعدّدة، ثم يحلّل فنياً القوالب التي وضعت فيها، ويبيّن أثر هذه القوالب في تكثيف الأفكار وإيجاز المعاني.

ولم يغفل البحث جانب المضمون، فقد نال قسطاً من التحليل، ولاسيما الجانب الأخلاقي منه، فقد حملت الحِكم في مضامينها تجارب أخلاقية لأصحاب العقول من الحكماء الهنود، وجاءت على شكل نصائح تتوخى الإيجاز، ولا ترهق المتلقي بصيغ الإلزام، وإنما تقدّم له التجربة، فتتركه يتفكر بها، ويختار ما يلهمه به عقله وما يناسب محيطه الذي يعيش فيه.

كلمات مفتاحية: إلزام، تجربة، تحليل، حكمة، مسكويه، نصائح.

Abstract:

This research sheds light on Indian Wisdom in the book "Eternal Wisdom" "Jawdan Khard" written by Muskoyeh. The research touches on the origins of these Wisdom and how they have been translated into Arabic language. It also analyzes the molds in which they have been put, and shows the effect of these molds on intensifying ideas and summarizing meanings .

The research also deals with the content, as it received a lot of analysis, especially the moral aspect of it. The wisdom carried in its contents, moral experiences of the minds of the Indian sages, and came in the form of advice that seeks to be concise.

* وزارة التربية والتعليم، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة.

مقدمة:

تمتدُّ العلاقات العربية-الهندية إلى عمق التاريخ، فقد ارتبط العرب مع الهنود بعلاقات تجارية قبل الإسلام، فقد وصل التجار العرب إلى بلاد الهند، وامتزجوا معهم ثقافياً وعرقياً، وعند عودتهم حملوا معهم في ذاكرتهم مجموعةً من الحكايات والحكم تداولتها الألسن من جيل إلى آخر. لكنَّ الاتصال الحقيقي كان بعد أن فُتحت بلاد الهند على يد محمد بن القاسم الثقفي في عهد الوليد بن عبد الملك"91هـ"، فقد انتقل الناس إلى البلاد الإسلامية حاملين معهم ثقافتهم إلى جانب البضائع التي كانت تُبادل. وظهر عدد من الأدباء الذين يعودون بجذورهم إلى الهند، منهم: ابن الأعرابي، وأبو العطاء السندي الشاعر، وغيرهما.

وقد عرف العرب شيئًا من طبائع الهنود، فقد اشتهروا بدقة البصيرة، وصفاء الذهن، ولهم علم، كما يقول الجاحظ: "بالحسابِ وعلمِ النُّجوم وأسرارِ الطبِّ، والخَرط والنَّجر، والتصاوير والصناعات الكثيرةِ العجيبةِ"[1]. أضف إلى ذلك علم البلاغة والخطابة[2]. ويبدو أنهم كانوا بارعين في الطب إذ نجد يحيى البرمكي يجلب مجموعةً من أطبائهم إلى بغداد، ويأمر بنقل كتب طبية من اللغة الهندية[3]. واشتهر عددٌ من المترجمين الذين ترجموا من اللغة الهندية إلى اللغة العربية، ويذكر ابن النديم عددًا من هؤلاء، منهم: منكه، وابن دهن الهندي[4].

ويمكن أن نضيف إلى الثقافة الهندية الكتب التي تُرجمت من اللغة الفارسية، فالتراث الهندي نُقِل إلى اللغة الفارسية في زمن الملوك الفرس. وقد عرف العرب بعضاً من قصص الهند؛ منها: كتاب كليلة ودِمنة المترجم من الفارسية، وكتاب السندباد الكبير والسندباد الصغير، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم، وكتاب أدب الهند، وكتاب

---

[1] الجاحظ، أبوعثمان، **الرسائل** (فخر السودان على البيضان). تح: عبدالسلام محمد هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1964م)، 212/1.

[2] نذكر هنا الصحيفة المترجمة التي ذكرها معمر والتي تفصح عن مفهوم البلاغة عند أهل الهند. انظر: الجاحظ، أبوعثمان، **البيان والتبيين**، بيروت: دار الهلال، 1423هـ، 95/1.

[3] خفاجي، محمد عبد المنعم، **الآداب العربية في العصر العباسي الأول، (بيروت:** دار الجيل، ط1، 1992م)، ص: 72.

[4] ابن النديم، أبو الفرج، **الفهرست**، (بيروت: دار المعرفة، 1997م)، ص: 507.

الرجل والمرأة، وغيرها من الكتب[5]. وهي -على مايبدو- خليط من القصص والخرافات والأسمار.

وذكر عدد من المؤلفين بعضاً من هذه القصص، منها هذه القصة من كتاب الهند: يُحكَى "أنَّهُ أُهدي إلى ملك الهند ثيابٌ وحُلِيٌّ وكسوةٌ، فدعا بامرأتين له، ووزيرٍ من وزرائهِ، فخيَّر إحدى امرأتيه بين اللباسِ والحليةِ، وكان وزيره حاضرًا، فنظرت المرأة إليهِ كالمستشيرةِ له، فغمزها باللباسِ تَغضيناً بعينه، ولحظَهُ الملكُ، فاختارت الحليةَ؛ لئلا يفطنَ الملكُ للغمزةِ، ومكثَ الوزيرُ أربعين سنةً كاسرًا عينه؛ لئلا تَقِرَّ تلك في نفسِ الملك، وليظنَّ أنَّها عادةٌ أوخلقةٌ"[6].

أمَّا النوع الثاني الذي عرفه العرب من الثقافة الهندية فهو الحِكم، وقد ذكر ابن النديم عددًا من الكتب التي تحوي حكماً هندية، منها: كتاب هابل في الحكمة، وكتاب شاناق في التدبير، وكتاب بيدبا في الحكمة[7]. وقد صيغت هذه الحكم على شكل جمل قصيرة، تفصح عن المعنى بيسر وسهولة. وشكلت مادة غنية للكُتَّاب الباحثين عن خلاصة تجارب الأمم، ولاسيما في القرن الرابع الهجري حيث امتلأت بطون الكتب بالحِكم التي تختزل التجارب البشرية، في تراكيب بسيطة لا يجد القارئ أيَّ عناء في إدراك مضامينها.

كتاب "الحكمة الخالدة" (جاويدان خرد):

عاش مسكويه في القرن الرابع الهجري، في بيئة ثقافية تقوم على تقدير العلم والمعرفة، فقد تربّى في مجالس معزِّ الدولة البويهي، وعمل خازنا للكتب عند عدد من الوزراء والأمراء[8]. ومهنته هذه مكّنته من الاطلاع على ثقافات الأمم، وهذا ما تعكسه مؤلفاته

---

[5] المصدر نفسه، ص: 607.

[6] الدينوري، ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م)، 22/1.

[7] ابن النديم، **الفهرست**، ص: 607.

[8] ولد أحمد بن محمد مسكويه ، كما يُظن سنة (320هـ)، وقد عمل مع المهلبي وزير معزّ الدولة منذ سنة (345هـ) حتى وفاة معزّ الدولة سنة (352هـ). ثم عمل مع أبي الفضل الوزير (ابن العميد) حتّى سنة (366هـ). وعند صمام الدولة حتى سنة(376هـ)، ومع ابنه بهاء الدولة حتى سنة (403هـ). ثم تحول مع صديقه ابن الخمّار إلى بلاد خوارزم شاه إلى أن توفي سنة (421هـ). انظر: الحموي، ياقوت، معجم الأدباء. القاهرة، مكتبة عيسى البابي الحلبي، د.ت. 5/5. أمَّا عن لقبه فهو عند بعضهم مسكويه، وعند بعضهم الآخر ابن مسكويه. وقد وجدنا أنَّ لقب مسكويه هو الأصح، لأن

الكثيرة التي ألّفها في الأخلاق[9]. وعمومًا فإنَّ مسكويه عُرف بحبّه للحكمة، فهو يحضُّ على طلبها والوقوف على أسرارها. يقول: "ياطالبَ الحِكمةِ طهّر لها قلبكَ، وفرّغْ لها لُبكَ، واجمعْ إلى النَّظرِ فيها همّتكَ. فإنَّ الحِكمةَ أعظمُ المواهبِ التي وهبَها اللّهُ لعبادِهِ، وأفضلُ الكرامةِ التي أكرمَ اللّهُ بها أولياءَهُ، وهي المالُ الذي من أحرزَهُ استغنى بهِ، ومن عَدِمهُ لم يُغنِهِ شيءٌ سواهُ، والصاحبُ الذي من صحبَهُ في عمرِهِ لم يستوحشْ معهُ، ومن فارقَهُ لم يسكنْ إلى أحدٍ بعدَهُ. هي للقلوبِ كالقَطرِ للنباتِ، ومن العقول بمنزلةِ الضياءِ من الإبصارِ، بَطُنتْ الحكمةُ لكلِّ شيءٍ، وظهرتْ عليهِ، وعلَتْ فوقَهُ، وأحاطتْ بهِ؛ فلها بكلِ شيءٍ خبرٌ، وعندها على كلِّ خبرٍ شهادةٌ. ومن أعظمِ شأنِها أنَّها ليس أحدٌ إلا وهو مُنتحلٌ اسمها، ومتزيّنٌ بها، ولا حاجةَ بها إلى انتحالِ شيءٍ غيرها، ولا التزيّنِ بغيرِ زينتها"[10].

وقد توّج حبّه للحكمة بكتاب جمع فيه ما لذ وطاب من الحِكم من الثقافة العربية، والثقافة الفارسية، والثقافة اليونانية، والثقافة الهندية. وكانت بداية مشروعه هذا عندما قرأ -وهو في حداثة سنّه- كتاباً للجاحظ يُعرَف بـ"استطالة الفهم" وقد ذكر فيه كتاباً في الحكمة يُعرَف بـ"جاويدان خرد"، فحرص على طلبه، حتى عثر عليه في بلاد فارس. وقد وجد فيه مادة لابأس بها من حِكم الفرس والهند والعرب والروم، فأحبَّ أن ينقل للباحث عن الحكمة ما يهذّب النفس ويرتقي بها. ولكنّه رأى أن يُصدر كتابه وصية لملك فارسي يُسمَّى أوشهنج، لما لها من أهمية عظيمة، ثم ألحق بالوصية جميع ما التقطه من وصايا وآداب الأمم الأربع. والغرض من ذلك أن يرتاض بها الأحداث، ويتذكر بها العلماء ما تقدّم لهم من الحِكم والعلوم، ويلتمسون تقويم النفس[11].

الحكم الهندية:

أ- مصادرها:

التوحيدي يصفه بهذا الاسم. انظر: الإمتاع والمؤانسة. تح: أحمد أمين وأحمد الزين، مصر، 1942، 35/1. وانظر: أركون، محمد، نزعة الأنسنة في الفكر العربي. تر: هاشم صالح، ط1، بيروت، دار الساقي، 1997م، ص: 140.

[9] من كتب مسكويه: تهذيب الأخلاق، والفوز الأكبر، والفوز الأصغر، وغيرها من الكتب في الأخلاق.

[10] مسكويه، أبو علي، **الحكمة الخالدة "جاويدان خرد"**. تح: عبدالرحمن بدوي، (دار الأندلس، 1952م)، ص: 285.

[11] المصدر نفسه، ص: 5-6.

أخذت الحِكم الهندية حيزًا من اهتمام مسكويه، فأوردها بعد أن انتهى من حِكم الفرس وآدابها، واللافت للنظر في هذه الحِكم أنَّه لم ينسبها إلى أيٍّ من حكماء الهند، بل اكتفى مسكويه بعرض هذه الحِكم من دون أن يزيد على ذلك. وهذا الأمر يجعل المرء يتساءل عن سبب إغفاله لأصحاب هذه الحِكم التي أوردها في كتابه، فهل تجاهل مسكويه أسماء أصحابها أم أنَّه لم يكن على دراية بهم؟.

إذا عدنا إلى المؤلفات التي سبقت كتاب "الحكمة الخالدة" لوجدنا أصحابها يذكرون عددًا من الحِكم المنسوبة لعظماء الهند، ولكن من دون ذكر أصحابها، ومنهم ابن قتيبة"276هـ" الذي ذكر عددًا من الحكم الهندية. يقول: "وقرأتُ في كتابٍ من كُتب الهند: شرُّ المال ما لا يُنفَقُ منه، وشرُّ الإخوان الخاذلُ، وشرُّ السُّلطان من خافهُ البريءُ، وشرُّ البلاد ما ليسَ فيهِ خَصبٌ ولا أمنٌ. وقرأتُ فيه: خيرُ السُّلطان من أشبهَ النَّسرَ حولهُ الجِيفُ لا من أشبهَ الجيفةَ حولها النُّسور"[12]. ويقول أبوحيّان التوحيدي "حوالي 400هـ"وهو معاصر لمسكويه: "وفي كتب الهند: لا ظفرَ معَ بَغيٍ، ولا صحةَ مع نَهمٍ، ولا ثناءَ مع كِبَرٍ، ولا صداقةَ مع غَضبٍ، ولا شرفَ مع سُوءِ أدبٍ، ولا برَّ مع شُحٍ، ولا اجتنابَ محرمٍ مع غرضٍ، ولا محبةَ مع هُزُؤ، ولا عُذرَ مع إصرارٍ، ولا راحةَ مع حسدٍ، ولا سؤددَ مع انتقامٍ، ولا رئاسةَ مع غيرةٍ وعُجبٍ، ولا صوابَ مع تركِ المشاورة، ولا ثباتَ ملُكٍ مع تهاونٍ وجَهالةٍ"[13].

ونلحظ أنَّ كلا المؤلفين ذكر الحِكم من دون ذكر أصحابها، وقد اكتفى كلٌّ منهما بالإشارة إلى أنَّه قرأ هذه الحكم في كتب الهند. فهل هذا يعني أنَّها في الأصل غير منسوبة لحكيم معين؟.

تستوقفنا عبارة أوردها الجاحظ في كتاب البيان والتبيين يقول فيها: "فأمَّا الهند فإنَّما لهم مَعانٍ مُدونة، وكتب مُخلّدة، ولا تضافُ إلى رجلٍ معروفٍ، ولا عالمٍ مَوصوفٍ، وإنَّما هي كُتب مُتوارثةٌ، وآداب على وجهِ الدّهرِ سائرةٌ مَذكورة"[14]. وهذا يعني أنَّ هذه

[12] الدينوري، ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، 55/1.

[13] التوحيدي، أبوحيان، **البصائر والذخائر**. تح: وداد القاضي، (بيروت: دار صادر، 1988م)، 151/2.

[14] الجاحظ، **البيان والتبيين**، 20/3.

الحِكم لم تضف إلى حكيم معروف، وإنما هي حكم متوارثة شفويًا وكتابيًا، تناقلتها الألسن في البداية، ثم ما لبثت أن ترجمت الكتب التي جمعت التراث الهندي من الحِكم من دون أن تنسب إلى حكيم من الحكماء، وقد تعامل معها الكُتَّاب العرب من هذا الباب، ومنهم مسكويه الذي توفّر بين يديه مجموعة من الكتب التي تشتمل على أقوال ونوادر وحِكم لم تُنسَب إلى حكيم محدّد بل هي نتاج مجموعة من الحكماء كان له تجربة في الحياة، ونقلوا إلينا تجاربهم الناضجة اليانعة. وقد اكتفى بعبارة "وممّا يؤثرُ من حِكم الهند"[15]، وهذا يعني أنَّه جمع هذه الحكم من بطون المؤلفات التي سبقت عمله هذا، أو مما سمعه من المهتمين في هذا الشأن. ولم يثبت أسماء الحُكماء الذين صدرت عنهم هذه الحِكم، لأنَّ المصدر الذي متح منه لم ينسبها إلى أحد معين، بل نقلها على أنَّها نتاج الحكماء الهنود.

ب- الشكل الفني:

اختار مسكويه من الحِكم الهندية ما يسلِّط الضوء على الجانب العملي من حياة الناس، وتبدأ كل حِكمة بإطلاق حُكم أخلاقي، ثم تُذكَر أقسام الناس الذين يشملهم هذا الحُكم. وقد بدأ بالتقسيم الثنائي، ثم بالتقسيم الثلاثي، وانتهى بالتقسيم العُشاري. ثم ذكر بعض الحِكم التي تنفع من يصحبون السلطان.

وكان للتقسيم الثلاثي قصب السبق في الحِكم، يليه التقسيم الرباعي. ومن التقسيم الثلاثي قوله: "ثلاثة ينبغي أن يُعذَبوا أشدَّ العذاب: المجرمُ الذي يظلم من لا جُرمَ له، والمتقدِّم إلى مائدة لم يُدعَ إليها، والذي يسأل أصدقاءه ما ليس في وسعهم؛ فإذا أخبروه أنَّه لا يمكنهم عاودهم المسألة ولم ينتهِ"[16]. ومن التقسيم الرباعي قوله: "أربعةٌ يُفسدون أعمالهم وحكمتهم: عاملُ الحسنات الذي ينشرها للناس فيقول: فعلتُ وفعلتُ كأنَّه يَمُنُ بها، وواضعُ المعروف عند السُّفل المصطنع من لايستأهلُ الصنيعة، والمُكرم للعبد المتواني الفظُّ الذي لايرحمه، والمرأةُ التي تصنعُ الخيرَ بولدِ السّوء"[17].

---

[15] مسكويه، **الحكمة الخالدة**، ص: 91.

[16] المصدر نفسه، ص: 91.

[17] المصدر نفسه، ص: 96.

ولاندري لماذا اختار مسكويه هذا القالب من الحِكَم في كتابه؟!. ولكنّنا نظن أن المصدر الذي نقل منه هذه الحكم اقتصر على هذا النوع، أو ربما اختار مسكويه هذا القالب لأنَّه وجد فيه ما يشمل أصنافاً متعددة من الناس، وفيه من المعاني الغزيرة ما يختصر التجارب الإنسانية. ومهما يكن من أمر فإن مسكويه قد أصاب بسهامه فئات متعددة من الناس في المجتمع، إذ لا يعدم الإنسان أن يجد في نفسه أو فيمن حوله شيئاً من صفات الأشخاص الذين استهدفتهم الحكم.

وكان لفنِّ التقسيم الذي جاءت به الحِكَم دور في إضفاء الدقة والعمق على الأفكار، ففنُّ التقسيم "لهُ موقعُ في الفصاحة لا يمكن جَحده ولا يسعُ إنكاره"[18]. فهو يجعل المتكلم يستوفي أقسام الشيء، "بحيث لا يغادرُ شيئاً، وهو آلة الحصرِ ومَظنّةُ الإحاطةِ بالشيء"[19]. واختيار التقسيم العددي للحِكَم أعطى الأفكار شمولية في الحُكم، فهو قد جمع الأصناف تحت حُكم واحد، ثمَّ فصل الحُكم في كل قسم. ومن أمثلة ذلك قوله: "ثلاثة لا يلبث ودّهم أن يتصرّم: الصديقُ الذي لا يقوم بحقِّ صديقه عند النوائب، ويطيل غَيبته عنه، ويتوانَى عن زيارته، ولا يكاد يصير إليه إلا على كُرهٍ، فإذا صار إليه ما راه في كل ما نَطقَ به؛ والمداخلُ لأصدقائهِ في النِّعم والفَرَح، حتَّى إذا نابتهم نائبةٌ قطعهم؛ والرجل يُريدك في الأمرِ حتى إذا وصل إليه استغنى عنك فزالَ ودّه بزواله"[20]. فقد جمع أقسام الناس الثلاثة تحت حُكم واحد وهو الحبُّ الزائف الذي بُني على المنفعة، ثمَّ فصل الكلام بذكر حال كلِّ قسم؛ فمنهم الصديق الذي يساند أصدقاءه وقتَ الشّدة، والصديق الذي لا يخالط أصدقاءه إلا وقت الرخاء، ومن صحبته قائمة على منفعة متى ما حصلها غاب عن الأعين.

وقد اقترن فنُّ التقسيم بالبُعد عن الأساليب الإنشائية، فجاءت الحِكَم ضمن أساليب خبرية، تدلُّ المتلقي على الطريق الصواب من غير أن ترهقه بصيغة الإلزام، والمتمثلة

---

[18] العلوي، يحيى بن حمزة، **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**. تح: سيد بن علي المرصفي، (مصر: مطبعة المقتطف، 1914م)، 144/3.

[19] الزركشي، محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**. تح: محمد أبوالفضل إبراهيم، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1957،1م)، ج3، ص: 471.

[20] مسكويه، **الحكمة الخالدة**، ص: 94.

بأسلوب الأمر. فحين ينصح الحكيم بضرورة التأني أثناء الإقدام على العمل الخطير، لايستخدم صيغة الأمر، بل يقدم للمتلقي صورًا من ذلك. يقول: "ثلاثةٌ ينبغي لهم أن يتأنُوا ويثبتُوا ويقدمُوا بعد تؤدة: الذي يرقى في الجبلِ الشاهقِ، والذي يهمُّ بالأمرِ الجسيم من الدنيا، والذي يميزُ الحقَّ من الباطلِ ليتفقدَ الصوابَ ويعملَ به"[21]. فقد وُظِّفَ الفعل المضارع حتى يشير إلى استمرار الحُكم الذي وضعه في المستقبل، والأفعال التي استخدمها ينبغي أن تُراعى بالترتيب من الأصناف الثلاثة، فبداية قبل الإقبال على الأمر يجب أن يتمهل المرء فيفكر ويقرّر، ثم يتمسك برأيه الذي اتخذه فلا يتردّد، وأخيرًا يُقبل على إنجاز ما عقد العزم عليه.

ولم تقتصر الحِكم على الحضِّ على الأفعال الإيجابية فحسب بل تنوّعت بين الإثبات والنفي. فالفعل المضارع كان يأتي في بعض الأحيان منفياً، مثل قوله: "أربعةٌ لا ينبغي لأحد أن يثقَ بهم"[22]. وقوله: "أربعة لا ينبغي أن يمازحوا ولا يضاحكوا"[23]. وقوله: "عشرة لا يزالون في سخط الناس"[24]. وأحياناً من دون نفي، مثل قوله: "ثلاثة يعملون بالسُّنة فلا لوم عليهم"[25]. وقوله: "أربعة ينبغي أن يسخر منهم ويهزأ بهم"[26]. وقوله: "أربعة يفسدون أعمالهم وحكمتهم"[27]. ومهما يكن من أمر فإن الحِكم التي أوردها مسكويه تتبع نمطاً محددا تكاد لا تحيد عنه، من حيث التقسيم العددي، وتوظيف الأسلوب الخبري، واستخدام الإثبات والنفي. ولا ترهق المتلقي بصيغ الإلزام التي نجدها غالباً في الحِكم الفنية الأخرى.

ج- المضمون الفكري:

تُعدُّ الحكم الفنية منبعاً ثرًّا للتجارب الإنسانية على مرِّ العصور. ولهذا وجدنا مسكويه يحرص على جمع هذه الحكم تحت مُسمّى الحكمة الخالدة؛ كي يستفيد أبناء

[21] المصدر نفسه، ص: 92.
[22] المصدر نفسه، ص: 93.
[23] المصدر نفسه، ص: 96.
[24] المصدر نفسه، ص: 98.
[25] المصدر نفسه، ص: 94.
[26] المصدر نفسه، ص: 93.
[27] المصدر نفسه، ص: 96.

عصره من هذه التجارب، ويسعوا لإصلاح أخلاقهم ومجتمعهم للوصول إلى السعادة التي يطمح إليها كلُّ إنسان. وتتميّز الحكم الهندية التي أوردها مسكويه بمعالجتها لقضايا تمسُّ المجتمع، فهي تتناول نماذج إنسانية واقعية تعيش بيننا؛ كالكريم والبخيل، والصادق والكاذب، والشجاع والجبان...إلخ. كما أنّها تحدّد الأفعال التي تقوم بها في المجتمع، وتشير إلى النتائج السلبية والإيجابية التي تتمخض عن هذه الأفعال، وتقدّم الحلول المناسبة للتعامل مع كلِّ النماذج. مثل قوله: "عشرةٌ لاينبغي أن يُسكَنَ إليهم حتّى يُجرَّبُوا ويُمتحَنُوا ثم يُوصَفُوا: الشجاعُ المُدَّعى للحربِ واللقاء، والظريفُ المُستعدُّ للعشرةِ، والحَليمُ عندَ الغضبِ، والتاجرُ عند المُحاسبة، والصديقُ عند الشدّة، والسَّخيُّ عندَ السؤالِ، والمُستودَعُ بالدراهم، والكريمُ عند الشكر، والحازمُ عند حُلول المُصيبة"[28].

إن هذه الحِكمة تخضع عشرة أصناف من الناس للتجريب والامتحان حتى يتبيّن للإنسان صدقهم من كذبهم، وهم: الشجاع، والظريف، والحليم، والتاجر، والصديق، والسخي، والأمين، والكريم، والحازم. والسبب في ذلك أن كثيرًا من الناس يدّعون أنهم يتصفون بصفات هؤلاء، ويتبيّن للإنسان بعد حين أنهم لا ينتمون إلى هذه الزمرة، لذلك ينبغي أن نمتحن المُدعي بهذه الصفات قبل أن نحكم بصدقه.

كما أنها تحكم على أفعال الناس من حيث الصواب والخطأ، أو الخير والشر، أو الذكاء والغباء. مثل قوله: "ثلاثة ينبغي أن يسفَّهوا ويحكم عليهم بالحمق: المتطبب الذي يداوي المرضى من الكتب والدفاتر ولا يعرف الطبائع والقوى، وما الذي يضرُّ وينفع، فيجرب على الأبدان ويُهلك النفوس؛ والنجار الذي يأخذ القدوم فلا يزال ينحت الخشب حتّى يملأ حانوته من الحطب ثم لا يبقى له موضع فيه فيخرج هو وامرأته وولده إلى الشمس في الهاجرة وأيام الصيف، وإلى البرد والرياح والأمطار في الشتاء؛ والمفتي في الدين وهو لا يعرف الفقه ولا يقتبس العلم من موضعه"[29].

فهذه الحكمة تحذر من ظاهرة منتشرة في المجتمع ألا وهي اللجوء إلى من يعتمد العلم النظري من دون التجريب، فالإنسان الذي قرأ كتب الطب وحفظها لا يصبح طبيباً إلا

[28] المصدر نفسه، ص:97-98.

[29] المصدر نفسه، ص: 92

إذا قرن معرفته النظرية بالمعرفة الحسية للجسد الذي يراد تطبيبه، وما يتبع ذلك من معرفة طبائعه وما يعتريه من مظاهر تلاحظ من خلالها أعراض المرض الذي يبدو ظاهرًا على جسم المريض، وبذلك يوصف له الدواء. وهذا الأمر ينطبق على النجار الذي ينبغي عليه أن يضع تصورًا عمليا لما يقوم به قبل أن يقدم على عمله، وبذلك يجنب نفسه الخطأ في البناء. وكذلك الفقيه الذي ينبغي أن يكون على دراية عملية بما يقدّمه للناس من نصائح تمسُّ الدين.

ونلحظ من الحِكم السابقة أنها لا تلتفت إلى تمجيد الفضائل بل تهتم بالأفعال الإنسانية التي تؤدي إليها، فهي تنقل نتائج تجارب إنسانية خاضها الحكماء، أو استخلصوها من تجارب الآخرين. وفيها تحذير مُبطن يستخلصه المتلقي من هذه التجارب، فيجنب نفسه الوقوع في الخطأ الذي وقع فيه من قام بالتجربة قبله.

فالغاية إذاً حفظ الإنسان قبل الحُكم عليه، وإرشاده إلى طريق السعادة التي هي غايته. فهي تجنبه الحزن، فلا يكون من الستة التي تصيبهم الكآبة. كما تقول الحِكمة: "سِتةٌ لا تُخطئهم الكآبة: فقيرٌ قريبُ العهد بالغنى، ومُكثرٌ يخافُ على مالهِ، وطالبُ مَرتبةٍ فوقَ قدرهِ، وحسودٌ على رزقِ غيرهِ، وحَقودٌ على من لا ينتصرُ منهُ، وخليطُ أهلِ الأدبِ من غيرِ أدبٍ معه"[30]. وليس من العشرة الذين يسخطهم الناس"السريعُ الغضبِ الذي لا تؤدةَ له ولا عفو، وصاحبُ المودّةِ الذي ليس بماهرٍ فيستعملُ المودّةَ في غيرِ موضعها، والماهرُ الكاملُ الذي لا يريدُ الصلاحَ ويدبّرُ البشرَ، والخبيثُ اللسان، الذي لا ينجو من لسانهِ أحدٌ، والمُحني المرائِي الذي ليسَ الانحناءُ من شيمته، والعاصي الشرهُ والبخيلُ الطمّاعُ، وذو العلم الضنينُ بعلمهِ، والمتصنّعُ المتشبّهُ بالعابدين، يريدُ بذلك الثوابَ في الدّنيا، ومن يعملُ الأعمالَ وهو آمنٌ من الغيرِ، والمتسلطُ بقوتهِ على الضُّعفاء"[31]. ومن السَّبعة الذين لارحمةَ لهم: "الرّجلُ الحقودُ، وحاملُ الموتى بكِراءٍ، وقاطعُ الطّريقِ، ومانعُ العطشانِ من الماء، والجلادُ الذي يجلدُ الناسَ فيموتون أو تنقطع جلودهم من غير ذنبٍ

[30] المصدر نفسه، ص:99.

[31] المصدر نفسه، ص: 98.

منهم إليه، وصاحبُ المسْلَحَةِ، والطامعُ فيما ليسَ له"[32]. ومادمنا نتكلم عن الأفعال التي توصل إلى السعادة فإن معرفة طرق التعامل مع السلطان من الأمور التي تدخل في هذا الباب. ولهذا نجد حِكماً تتناول علاقة الإنسان بمن يعلوه في المرتبة من الحكام. فعلى الإنسان عدد من الواجبات للسلطان. مثل: "النصيحة، وحفظ السرِّ، وتزيينُ أمرهِ، وإيثارُ هواه، وتقديرُ الأمورِ على مُوافقته في الكُره والرِّضا، ومجانبةُ الغشِّ له، وصلةُ من وصلَ وقطعُ من قَطع، وأن لا يُخفي عنه سرًا، ولا ينتقلُ له من طاعةٍ، ولا يرغبُ بنفسه عن شيءٍ يوافقهُ، ولا يتسخّطُ قليلَ عَطيته، ولا ينظرُ كرامتهُ، ولا يستعملُ الدّالةَ عليه، ولا يكذّبهُ إذا سألَ، ولا يستثقلُ ما حمّلهُ، ولا يسألُ إذا جَفاهُ ولا يأمنه إذا أرضاه، ولا يعذرُ من لامَ، ولا يلومُ من عذرَ، وأقلَّ مماراته"[33]. وهي كما نرى وصايا تنأى بالنفس عن كل ما يكدّر صفوها، ويضعها في موضع الخطر. فالغضب من صاحب الأمر يوقع الإنسان في المهالك، ويعرضها لسوء العاقبة.

إذًا نحن أمام حِكم تهتم بحفظ الإنسان في المجتمع، وتقدم له خلاصة تجارب الحكماء في معاملة الناس بمختلف مستوياتهم، والغاية من ذلك وقاية النفس ممّا قد يلحق بها من الضرر كي تتحقّق السعادة التي يصبو إليها كلُّ إنسان في المجتمع.

خاتمة البحث:

لقد كانت الحِكم الهندية رافدًا مهماً من روافد الحكمة في الثقافة العربية، فقد نقلت إلينا خلاصة التجارب الإنسانية التي خاضها الحكماء الهنود. ومع أنّها لم تُنسَب إلى حكيم من حكمائهم إلا أن أهميتها تنبع من مضمونها الذي يسلّط الضوء على الإنسان بذاته من خلال علاقته مع الآخر. وتأخذ بيده كي يتجاوز صعوبات الحياة، فيصبح الطريق ممهدًا أمامه لتحقيق السعادة التي ينشدها. وهي لا تميل إلى الأمر في أسلوبها بل تخاطب العقل الإنساني، فتجعله يتفكر في التجارب التي تقدّمها، فيختار منها ما يناسب مجتمعه ومحيطه الذي يعيش فيه.

[32] المصدر نفسه، ص: 97. والكراء: الأجر. والمسلحة: قوم ذوو سلاح.

[33] المصدر نفسه، ص: 99-100

المصادر والمراجع:

- ابن النديم، أبوالفرج، الفهرست، بيروت، دار المعرفة، 1997م.
- الدينوري، ابن قتيبة، عيون الأخبار، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م.
- أركون، محمد، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، تر: هاشم صالح، ط1، بيروت: دار الساقي، 1997م.
- التوحيدي، أبوحيان، الإمتاع والمؤانسة، تح: أحمد أمين وأحمد الزين، مصر، 1942م.
- التوحيدي، أبوحيان، البصائر والذخائر، تح: وداد القاضي، بيروت: دار صادر، 1988م.
- الجاحظ، أبوعثمان، البيان والتبيين، بيروت: دار الهلال، 1423هـ.
- الجاحظ، أبوعثمان، الرسائل، تح: عبدالسلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1964م.
- الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، القاهرة: مكتبة عيسى البابي الحلبي، د،ت.
- خفاجي، محمد عبد المنعم، الآداب العربية في العصر العباسي الأول، ط1، بيروت: دار الجيل، 1992م.
- الزركشي، محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957م.
- العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح: سيد بن علي المرصفي، مصر: مطبعة المقتطف، 1914م.
- مسكويه، أبوعلي، الحكمة الخالدة "جاويدان خرد"، تح: عبدالرحمن بدوي، دار الأندلس، 1952م.